http://nj180degree.com

تراث الإنسانية
NYROUF

سيرة بنى هلال

د. عبدالحميد يونس

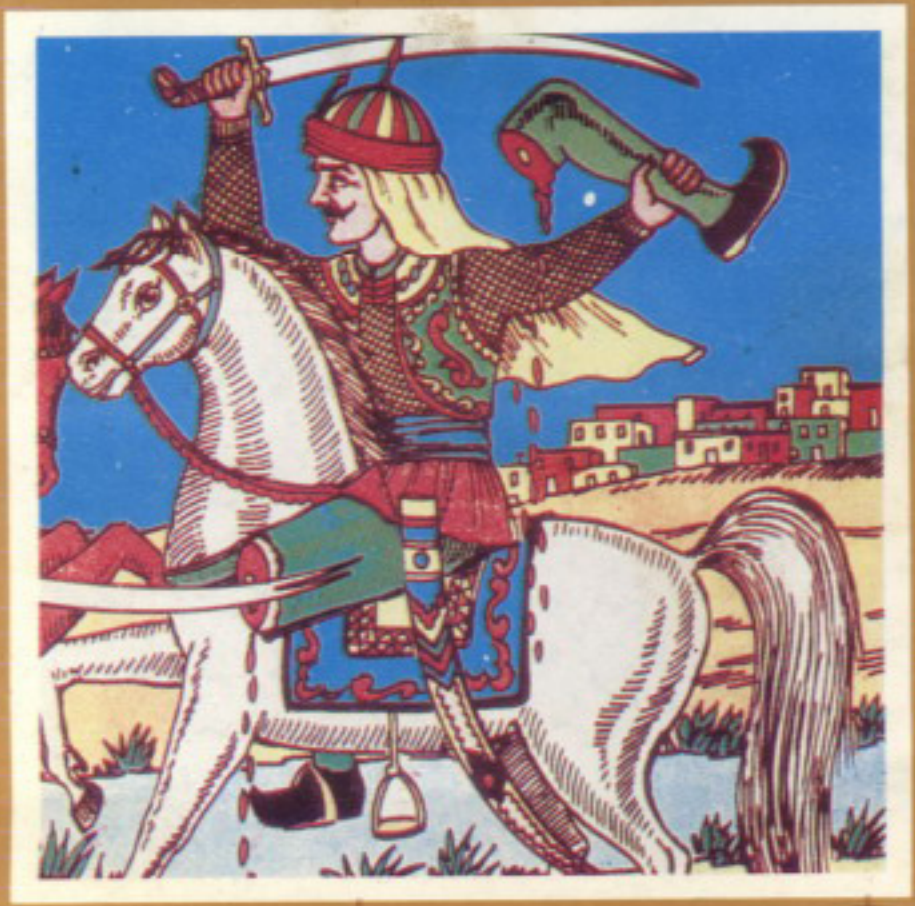

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

http://nj180degree.com

سيرة بنى هلال

NYROUF

د. عبدالحميد يونس

NYROUF

http://nj180degree.com

القراءة للجميع

مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

سيرة بنى هلال

د . عبدالحميد يونس

انقضت ستة قرون ظل فيها الشعب العربى يتغنى بحفظ أحداث سـيرة بنى هلال ، وفضائل أبطالهـا ، ولم يكن هذا الاحتفال بتلك السيرة لمجرد السمر أو الترفيه أو تزجية الفراغ ، وانما كان لحافز أعظم وأنبل يرتبط برأى الفرد فى نفسه وفى أمته ، أو بمعنى آخر ، يرتبط بصورة المواطن العربى كما ينبغى أن يكون فى نظر نفسه وفى نظر غيره على السواء ، ويتعلق بفضيلة الأمة العربية وتبعاتها فى تحقيق وجودها ، والحفاظ عليه ، والعمـل الدائب على النهوض به . ومع ذلك أهمل الأدباء والمؤرخون هذه السيرة دهرا طويلا ، وكان قصاراهم أن يسـجلوا استماعهم اليها فى طفولتهم ، وانكارهم اياها بعد ذلك ، فى حين اهتم بها الحكيم العـربى ابن خلدون المتوفى أوائل القرن التاسع الهجرى ، ودون بعض نصوصها ،

http://nj180degree.com

وسجل طرائق انشادها العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية الى مصر ، ولم يستطع المستشرق الانجليزى « ادوارد لين » أن يغفلها فيما صور من أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم . ولم يفكر الباحثون فى طابعها الملحمى ، ونظروا اليها والى غيرها من السير الشعبية العربية على أنها ضروب من قصص الفروسية الرومانسى الذى شاع فى القرون الوسطى ، حتى حاول المصنفون الغربيون فى فترة ما بين الحربين ، أن يجمعوا ملاحم الشعوب ، فوقعوا على سيرة بنى هلال ، وعدوها الملحمة التى تمثل الشعب العربى ، وتبرز فضائله ومزاياه ، وتبين طريقته فى التعبير عن وجدانه القومى .

ومن الأخطاء التى شاعت بين النقاد ومؤرخى الأدب ، والتى استقرت حتى كادت تصبح من المسلمات ، أن الأدب العربى بصفة عامة ، والشعر منه بصفة خاصة ، لم يعرف الملحمة . وهو الخطأ الذى اتخذ صيغة القانون الفلسفى على يد « ارنست رينان » الفرنسى وسلم به المستشرقون ، ووافق عليه بعض الدارسين من العرب . ومصدر هذا الخطأ ، القول بأن العقلية العربية قاصرة بفطرتها عن انشاء الملحمة ، وأنها تنزع دائما الى التجريد ، وتنفر من التجسيم والتشخيص ، وأن المرحلة الثقافية التى كان المفروض أن تثمر الملحمة ، كانت تقوم على الظعن وعدم الاستقرار ، والصدور عن عصبية قبلية ضيقة ، تثمر الشعر الغنائى بمقطوعاته القصار ، وليس من غرضنا

أن نرد هذا الخطأ ، وحسبنا أن نشير الى ثلاث حقائق بارزة فى التاريخ العربى : الأولى أن الجاهلية ذات الطابع البدوى التى سبقت الاسلام بما لا يزيد على ثلاثة قرون ، ليست بداية الأمة العربية .. انها أقدم من ذلك بكثير ، فالجزيرة العربية كانت بمثابة « الخزان البشرى يمد الجانب الأكبر من العالم القديم بمدد متواصل من القوة البشرية ، والعناصر الثقافية . والحقيقة الثانية ، أن مواضع من هذه الجزيرة عرفت الحضارة فى عصر متوغل فى القدم ، وبخاصة فى الجزء الجنوبى منها ، ومعنى ذلك أنها عرفت الاستقرار منذ أمد بعيد ، كما أن الجاهلية قد تأثرت بحضارة هذا الجزء الى جانب تأثرها بالحضارات المحيطة بها ، مع احتفاظها بطبيعتها وأصالتها ، وأنها لم تكن همجية أو بدائية ، وانما كانت مرحلة ثقافية ، بدت فيها بوادر الشروع الى التوحد ، أما الحقيقة الثالثة ، فهى أن التراث الأدبى المدروس ، لم يكن الحصيلة الكاملة لنبضات الوجدان العربى ، أفرادا وأمة ، ولقد أغفل هذا التراث فيما أغفل ، المأثورات الشعبية التى اعتصم بها الوجدان القومى العربى عندما رأى لشعر الفصيح لايفى بجميع حاجاته الفنية ، وبخاصة عندما تحيف غير العرب أرضه ابان الحملات الصليبية ، وعندما رأى عناصر غير عربية تحكمه وتغل ارادته ، وتستأثر بخيرات بلاده ، فانتخب حلقات من الفروسية العربية ، وصاغها ملاحم يتغنى بها ويحفظها ، تمكينا للفضائل العربية من ناحية ، واذكاء للروح المعنوى من ناحية أخرى ، ولذلك وجدنا

http://nj180degree.com

سيرة بنى هلال تحتل مكان الصدارة بين المأثورات الشعبية ، وتظل حية فعالة على مدى القرون .

وجدير بالدارس المنصف الذى يتوخى الحيدة فى الحكم ، وعدم التأثر بالفكرات السابقة التى صدر أغلبها عن هوى عنصرى ، أن ينظر الى الأمة العربية كغيرها من الأمم باعتبارها جماعة انسانية منسجمة ، عريقة الأصل ، طويلة العمر ، وأنها بهذا الاعتبار ، أسهمت فى بناء الحضارة العالمية ، ولم تكن بدعا بين الشعوب التى درجت على الأرض ، وأنشأت الملاحم ، استجابة لنبض وجدانها القومى . ولقد انتهى النقاد أو كادوا الى التفريق بين ضربين متمايزين من الأدب الملحمى ، الأول : هو الذى صدر عن وجدان جمعى ، قبليا كان أو قوميا ، والجماعة فيه هى المنشىء والمتذوق فى وقت معا ، وهذا الضرب من الملاحم ، ينشأ صغيرا فى صورة المقطعات المفرقة ، ثم تتجمع عناصره وتنمو مسايرة للوجدان الجمعى ، والنقاد يسمون هذا الضرب الملاحم الشعبية ، أو الأصيلة ، ويستشهدون عليه بالالياذة اليونانية المنسوبة الى هوميروس ، أما الضرب الثانى ، فهو تقليد للأول ، يقوم به أديب فرد ، وهو لذلك يصدر عن وجدانه ، ويتسم بالطابع الفردى الذاتى . ويطلق النقاد عليه الملاحم الأدبية أو الفردية ، ويضربون له المثل بانيادة « فرجيل » . واذا نحن أردنا أن نضع سيرة بنى هلال فى مكانها من هذين النوعين ، فاننا نسلكها فى باب الملاحم الشعبية ، فليس لها مؤلف يعرف على

التحقيق مهما نسبت الى أديب أو راوية ، أو عدد من الأدباء أو الرواة ، وهى من غير شك نبضات الوجدان القومى للأمة العربية ، والمنشئون والمتذوقون لها ، هم الشعب العربى أفرادا وقبيلا وأمة ، وكانت نشأتها طبيعية تلقائية كسائر الملاحم الشعبية . ومن اليسير أن يتبين الدارس لها المرحلة التى اكتملت فيها وهى ـ كما قلنا ـ مرحلة المد الاستعمارى المعروف فى التاريخ بالحروب الصليبية . وبلغ من حرص الشعب على سياق أحداثها وقسمات أبطالها ، أنه لا يتساهل فيما حفظ من صورتها المتكاملة ، وحلقاتها التى يأخذ بعضها من بعض . واذا كان المنشد المحترف ، المتخصص فى أداء هذه السيرة قد أعان على تكاملها وثباتها ، فانه لا يستطيع الا أن يفصل أو يجمل ، يقدم أو يؤخر فى أضيق الحدود . وهذه السيرة التى عاشت ، ولا تزال تعيش ، قرونا متطاولة ، والتى جعلها الشعب العربى من الخليج الى المحيط ، زاده الفنى ، لاتختلف ان باختلاف اللهجة العربية لبيئة من البيئات ، أو جيل من الأجيال ، أما عمودها الفقرى ، وعلاقات أحداثها ، وأخلاق أبطالها ، فواحدة لا تكاد تتغير . وليس من دليل على استجابتها للوجدان القومى العربى أعظم من هذا الدليل فى احتفاظها بخصائصها منذ أواخر العصر الفاطمى الى الآن ، وفى اعتصام الوطن العربى الكبير بها ، على اتساع رقعته واختلاف لهجاته بل انها نفذت مع العرب الى أواسط أفريقيا وغربها ، فهى تنشد فى نيجيريا ، وفى بقاع أخرى من القارة العذراء .

http://nj180degree.com

وما أكثر السير الشعبية التى أنشأها العرب وتذوقوها ، وما أكثر أيام العرب التى احتفظت بها ذاكرتهم وأعادت عبقريتهم صياغتها من جديد فى شعر ونثر فنى ... ما أكثر الفرسان الذين انتخبهم الشعب العربى من فترة نقاء الجنس أو الجاهلية ، أمثال « الزير سالم » و « سيف بن ذى يزن » و « عنترة بن شداد » وغيرهم ، فما الذى مكن لسيرة بنى هلال بين هذه السير وما الذى جعل لها مكان الصدارة فعاشت عمرا أطول من سائر الملاحم الشعبية العربية ؟ الجواب على هذا السؤال سهل يسير اذا نحن وضعنا فى اعتبارنا : أولا : أن بنى هلال قبيلة عربية عاشت نقية لجنس بدوية الطابع ، وأن شطرا كبيرا منها لم يبرح الجزيرة مع من برحها من عرب الفتح ، وثانيا : أن أحداث السيرة تستوعب الوطن العربى الكبير بأسره ، فهى تساير الاتجاه الجغرافى البشرى من الجنوب الى الشمال مغربه الى مصر ، ومصعدة الى شمال أفريقيا ، فهى مدد من الفتوة العربية من الخليج الى المحيط ، وثالثا : أن بؤرتها لا تتركز فى بطل واحد ، وان كان المبرزون من فرسانها لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ، ولكنهم مرتبطون بجميع أفراد المجتمع الهلالى ، فهى جماعية فى انشائها وفى أبطالها ، جماعية فى الحافز وفى الصورة وفى الوظيفة جميعا .. ولقد انقرضت سير شعبية كثيرة ، ولم يعد المنشدون يذيعونها فى الناس ، ولكن سيرة بنى هلال بهذه المزايا ، ظلت حية ، وتبوأت مكان الصدارة

بين مأثورات الأدب الشعبى العربى . فهى اذن ملحمة شعبية بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، وهى اذن أبرز ملاحم العرب ، وان كانت أحداث التاريخ التى استغلتها متأخرة بالقياس الى غيرها ، فهى تعود الى القرن الخامس الهجرى وما تلاه .

دراسات وترجمات

وكان أول خيط جدى فى تاريخ سيرة بنى هلال وذكر الأعلام والوقائع الخاصة بها ، هو ما أورده العلامة ابن خلدون فى تاريخه وفى مقدمته (فلقد حاول ابن خلدون أن يتعرف من أعقاب الهلالية الذين عاصرهم أنباء رحلتهم الجماعية الى شمال افريقيا ، وسجل بما عرف عنه من اعتماد على الملاحظة المباشرة ، ودقة فى التدوين أسماء الفرسان الذين نهضوا بريادة الطريق ، والذين قادوا القبيلة بأسرها الى بلاد المغارب ، وحاول قدر استطاعته أن يضبط أنسابهم فى عشائرهم) ، والدارس لأقوال ابن خلدون يلمح لأول وهلة .

أن سيرة بنى هلال كانت من الناحية الأدبية فى طريقها الى التكامل ، وابن خلدون ، وان اهتم باحدى الحلقات أكثر من غيرها ، فقد أوضح الحافز القصصى على النقلة القبلية من الجزيرة العربية ، كما أنه سجل أعلاما لاتزال ذاكرة الشعب العربى تحفظهم وتعى مقومات شخصياتهم وتدرك مكانهم من الجمع الهلالى ، ومن المعسكر الزناتى أمثال « الحسن بن سرحان » و « دياب بن غانم » و « شكر الشريف » و « الجازية » و « خليفة الزناتى »

http://nj180degree.com

و « ابنته سعدى » • ويرجع الى هذا المؤرخ الكبير ، الفضل في الاحتفال بما يصدر عن البدو والعوام من أدب بصفة عامة ، وبهذه الملحمة الهلالية بصفة خاصة • يضاف الى هذا كله أن المقطوعات التى أوردها تنطق بأن هذه السيرة الشعبية ، كانت قد تجاوزت الطور الغنائى الى الطور الملحمى •

أما فى العصر الحديث ، فان المستشرقين هم الذين اهتموا بالمأثورات الشعبية العربية ، وكان أول من نبه الأذهان الى سيرة بنى هلال ، العالم الفرنسى « رينيه باسيه » فقد كتب عام ١٨٨٥ فصلا ضافيا تحدث فيه عن هذه السيرة ، واستعان بما أورده ابن خلدون ، ورجع الى ما كان قد طبع من حلقاتها فى القاهرة ، ولم يكن هذا الفصل مقصودا لذاته ، وانما كان بمناسبة صدور ترجمة فرنسية لاحدى القصص العربية •

وبعد ذلك بعشر سنوات أصدر المستشرق الألمانى « و • أهلوارد » فهرسه القيم الجامع للمخطوطات العربية بمكتبة برلين ، ولقد استغرقت مخطوطات هذه السيرة الجانب الأكبر من الكتاب التاسع عشر من ذلك الفهرس الكبير ، وهى تبلغ أربعة وسبعين ومائة مخطوط ، مع ايراد كثير من محتوياتها وذكر بعض الاعلام المتصلة بها • ولهذا المستشرق فضل الجمع والتبويب والمقارنة وريادة الطريق للباحثين بعده •

وفى عام ١٨٩٨ نشر المستشرق الألمانى هارتمان أيضا بحثا ضافيا عنوانه سيرة بنى هلال ، وأفاد من جهد « أهلوارد » ، واعتمد فى اماطة اللثام عن الجانب التاريخى من وقائع الملحمة ، على تاريخ ابن الأثير بصفة خاصة ، وحاول أن يجلو أهم حلقات هذه السيرة وهى النقلة الجماعية الى الغرب بقسميها المعروفين : «الريادة والتغريبة» وسجل ما فى هذا الأثر الأدبى الكبير من فضائل البطولة والحب ومن جمال فنى • واهتم الباحث الفرنسى « الفرديل » بنص شفوى مغربى ، ووازن بينه وبين لهجة « بنى شجران » وجعل عنوان كتابه « الجازية » وهو أدنى الى الدراسة اللغوية منه الى الدراسة الأدبية والتاريخية وان استأنس فى مقدمة بحثه بما انتهى اليه العلماء الذين سبقوه • • ولم يكتف بالدراسة وتسجيل النص الشفوى ، ولكنه أورد ترجمة فرنسية له مذيلة بتعليقات شتى ، ولهذا الكتاب مزيتان : الأولى اصطناعه منهج دراسة المأثورات الشعبية فى الاعتماد على النص الحى كما يؤديه أهله ، والثانية تعريف الغربيين بحلقة من أهم حلقات السيرة ، مبرأة من التزويق والصنعة •

وغنى عن البيان أن جميع المحاولات التى نهض بها المستشرقون لنقل هذه السيرة الشعبية أو أجزاء منها ، لم يكن الباعث عليها الاعجاب أو التذوق الفنى ، وانما كان استجابة لمقتضيات البحث والتاريخ • بيد أن « ولفرد سكاون بلنت » الانجليزى الذى عاصر الثورة

http://nj180degree.com

العرابية ، قد هدته شاعريته الى أن يتخير حادثة جزئية من أحداث هذه السيرة هى : تعرف أبى زيد الى زوجته عالية • فيترجمها الى الانجليزية شعرا يدل على اعجابه الخالص بها ، وهو الاعجاب الذى دفع الناقد الانجليزى « مكايل » الى التنويه بهذه الترجمة من منبر جامعة أكسفورد ، والاستشهاد بها فى محاضراته عن الشعر العالمى • وليس من شك فى أن سيرة بنى هلال ، على الرغم من هذه الدراسات والأبحاث ، لم تحظ بما حظيت به فى العالم الغربى رباعيات عمر الخيام الفارسى ، وحكايات ألف وليلة العربية •

الوقائع والشخوص

لم تكن « أيام العرب » عند الذين يتناقلونها أسمارا وقصصا خياليا ، بل كانت بمثابة التاريخ الجماعى للقبائل على اختلاف أنسابها فى الجاهلية والاسلام • ولقد صدرت عن عصبيات قبلية حينا ، وعن عصبية قومية حينا آخر • وتنطبق هذه السمة على السير الشعبية بصفة عامة ، وعلى سيرة بنى هلال بصفة خاصة • ومهما يكن من أمر الراوية أو المنشد ، وما يرتكز عليه من تقاليد فى السرد والحكاية ، وما يعطيه لنفسه من حرية التصرف فى أضيق الحدود ، فان ملاحم الشعب كانت بالنسبة اليه أقرب ما تكون الى التاريخ القومى • وليس من شك فى أنها اعتمدت على الواقع التاريخى الذى انتخبته عن وعى وعن غير وعى ، ثم سمحت للخيال أن يعيد صياغة الوقائع،

وأن يصور الشخوص ، بيد أن عمل الخيال كان مفيدا بوجدان الأمة ، متأثرا برغبتها فى اذكاء غريزة النضال والمقاومة ، وتجسيم الخصائص التى يمتاز بها العرب فى نظر أنفسهم عن بقية الأقوام •

ولما كانت السيرة الهلالية تحكى تاريخ قبيلة أو مجموعة من القبائل انضوت تحت رياسة بنى هلال ، فان الحقيقة التاريخية فيها ترتكز على دعامتين اثنتين : أولاهما الأنساب التى تجعل هؤلاء القوم يرتفعون الى هلال بن عامر بن صعصعه بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، أى أنها كانت قبيلة قيسية مضرية • ويلتقى سليم مع هلال فى شجرة النسب القيسى عند منصور • ويتفرع عن هلال بعد ذلك ثلاث شعب ، هى الأثبج ورياح وزغبة ، وهذه الشعب الثلاث هى التى ينتسب اليها آباء أبطال السيرة ، وهم سرحان ورزق وغانم • أما الحقيقة الثانية ، فهى اتجاه القبيلة ناحية الغرب وانتشارها فى الشمال الافريقى حتى بلغت المحيط الأطلسى • وهو اتجاه اتخذ صورة الغارات المتتابعة ، أو الهجرات الجماعية المتلاحقة • ونحن نذكر أن شطرا من أغراب نجد فى الجزيرة العربية لم يشارك فى الفتوح ، وأنه ظل على بداوته فترة ليست بالقصيرة ، واتسعت منازلة حتى شملت منازل بعض القبائل التى نزحت مع الفتح • وكان من الطبيعى أن يتكاثر القيسية ، وأن يستحدثوا ذلك الصراع المعروف بين

http://nj180degree.com

البدو والحضر . ونحن نذكر كذلك أن رهطا كبيرا من هلال وسليم وغيرهما قد شـــارك فى بعض الفتن ومنها فتنـــة القرامطة ، يضـــاف الى ذلك الدافع الطبيعى الى النقلة الجماعية ، وهو دورات الجدب التى تنزع بالقبائل الى مفارقة مواطنها ، واتخاذ مواطن جديدة تصلح لهم ولأنعامهم وهم فى هذه الحالة يزخمون غيرهم ويدفعونه الى النقلة كما يغيرون على الريف المستقر والمدن الآمنة داخل أسوارها . ويذكر ابن الأثير فى تاريخه « الكامل » أحداث هذه الغارات موزعة على الأعوام التى وقعت فيها ، وعنه نقل المؤرخون من العرب والمستشرقين ، ولعل أهم ما يستوقف النظر فى الدافع على التصعيد الى الشمال الافريقى هو ما ذكر من أمر الوزير الجرجرائى فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر الذى أراد أن يتخلص من شر هؤلاء الأعراب ، وأن يفيد منهم فى الايقاع بالمعز بن باديس الذى شق عصا الطاعة على الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، واتخذ السواد ، شعار بنى العباس فى بغداد ، وجعـل الخطبة لهم على منابر القيروان . ولا مجال الى تحقيق هذه الرواية التى أوردها المؤرخون القدماء وذكروا فيها أن الوزير الجرجرائى أغرى بنى هلال على الاتجاه ناحية الغرب ، بالأموال والابل . والراجح من دراسة مختلف الروايات ، ان نقلة الجمع الهلالى لم تحدث استجابة لهذا الاجراء فحسب ، ولم تتم دفعة واحدة أو على مرحـلة واحدة ... كانت هذه النقلة هجرة طبيعية لابد لها أن تصطدم بالنظم والجند والأعراب

الآخرين على الطريق . ومن هنا اتخذت صـورة الغارات التى لا يخفى حافزها الطبيعى واتجاهها الطبيعى أيضا .

ولقـد فعـل الخيـال الشعبى فعله فى الحقيقة التاريخيـة ، وطوع الفن القصصى لمقتضيات الوجـدان القومى ، وبدأ بالأنساب ، ولم يكن يعنى لشعب فى قليل أو كثير أن يكون بنوهلال من قيس أو غير قيس بل لم يكن يعنيه أن يكونوا من عرب الشمال أو عرب الجنوب ، فقد كان بين الجمع الهلالى رهط قحطـانى وكل الذى حافظ الشعب عليه هو الاطار التاريخى العام الذى وعته ذاكرته عن رواية النسـابين ، فالأبطال من الأثبج ومن رياح ومن زغبة ، وهم جميعا ينحدرون من هلال بن عامر . ولكن لابد من تشريف الشعب لهـلال ، فهو ممن دخـل فى الاسلام ، وبايع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصبح من الصحابة ، ولابد من تفسير شعبى لما كان يشتجر بين فرعين هامين من فـروع بنى هلال ، وهو النزاع الذى كثيرا ما كان يحدث داخل اطار الجمع الهلالى بين الحسن بن سرحان وأبى زيد من ناحية وبين دياب بن غانم من ناحية أخرى . ولم يرض الشعب أن تكون الفروع من أصلاب مختلفة ، فجعل هلالا يتزوج امرأتين هما : هدباء وعذباء ، ومـن هاتين الضرتين انحدر الفرعان اللذان يختلفـان فيما بينهما حتى اذا جـد الجد ، اجتمعا على العـدو المشترك .

أما الركن الثانى من ركن الحقيقة التاريخيـة التى ارتكزت عليها السـيرة الشعبية ، فقد سـاير فلسفة

http://nj180degree.com

التاريخ التى غلبت على القرون الوسطى ، وهى الفلسفة التى توسع من رقعة الزمن حتى تجعلهـــا قادرة على استيعاب التاريخ الانســـانى كله مع الاحتفاظ ببؤرة الاهتمام • ومن هنا رأينـــا سيرة بنى هلال ، كغيرها من السير الشعبية ، تحاول أن تبدأ من الأصل الأول الذى يمكن أن يعد بداية التاريخ للجمع الهلالى • بيد أن هذه الفلسفة التاريخية قد امتزجت فى الوقت نفسه بمنهج التأليف من التراجم والطبقات ، ولقد أعان الشعب على ذلك الاحتفال بالأنساب ، والاهتمـــام بالشخصيات البـــارزة باعتبارها العامل الأول فى سياق أحداث التاريخ ، ولذلك بدأت سيرة بنى هلال تقص أثـــر القبيلة ، مذ كانت فى تصور الشعب ، ببلاد السرو وعبادة فى أرض اليمن ، ثم تتحول الى وقائعها فى نجد ، وتبسط بعد ذلك أخبارها وأيامها وهى تكر على العراق والشام ومصر وبلاد المغارب ، وعكذا التقى التصور الكامل للوطن العربى الكبير بالاطار التاريخى العام للهلالية • وهو ما دفـــع المستشرقين الى تقسيم هذه الملحمة على الأساس الجغرافى الذى يساير فى الوقت نفسه الأساس التاريخى ، فجعلوها ثلاث حلقات الأولى : وبنو هلال فى أرض اليمن ، والثانية : وهم فى نجد ، والثالثة : وهم يرودون الطريق ثم ينتقلون بقضهم وقضيضهم الى الشمال الافريقى • وخير من ذلك أن تقسم الملحمة الشعبية على أساس تعاقب الأجيال الانسانية ، وهذا التقسيم يستوعب الأساسين السابقين ولا يناقضهما وهو يجعلها ثلاثة أجيال ، الأول : جيل الآباء الذى يبدأ

بهلال وينتهى بسرحان ورزق وغانم والثـــانى وهو أهم حلقات السيرة ، جيل الأبطال وهم : الحسن ، وأبو زيد ودياب ، والثالث : جيل الأبناء الذى درج أصحاب السيرة على تسميتهم بالأيتام ، ويمثله بريقع وعلى أبو الهيجات • ومهما اتسع الاطـــار فى الزمان والمكان ، ومهما تعقدت الأحـــداث والوقائـــع وكثرت الشخوص والتحمت ، فان الحقيقة التاريخية التى استغلها الوجدان القومى تظـــل المحور والبؤرة على الدوام ، فهى مركز الحركة والتوجيه ، وهى التى عناها الشعب وجعل ما عداها تابعا لها ، وتلك الحقيقة هى التغريبة وما سبقها من ريادة الطريق ، وهى التى تميط اللثام عن موقف الجمع الهلالى من غيره ، وهى التى تبرز مقومات الأبطال كما أرادهم الشعب العربى فى السلم والحرب على السواء • وثمة ظاهرة لابد من تسجيلها هنا ، وهى أن الشعب العربى كان يعبر فى فترة تكامل الملحمة عن موقفه من أعدائه ، وعن سخطه على الظـــلم ونزعته الدائبة الى توحيد الكلمة وتحقيق الوجود العربى• ومن هنا رأينا الملحمة تنظر الى المدن شبه المستقلة ، والى الدول المفرقة ، نظرها الى غير العرب •

وكان التحول من الحلقة الأولى التى تحـــكى تاريخ الآباء الى الحلقة الثانيـــة التى تروى بالتفصـــيل سير الأبطال ، مثلا رائعا من الناحيتين الانسانية والقومية ، وهذا التحـــول يفسر موقف العـــرب من ذوى البشرة البيضاء الذين غلبوهم على الحكم • ومن ثم جاءت بعض

http://nj180degree.com

الأحداث والظواهر وكأنها تفسير نفسى وفنى يذكى هذا الموقف ، فقد أوردت السيرة الهلالية بالتفصيل الظروف والملابسات التى خرج فيهـــا أبو زيـد الى الحياة وجسم المنشئون للملحمة لهفة العربى على الولد فرووا أن رزقا تزوج الى عشر نساء ، ولم يكن يجمع بطبيعة الحال الا بين أربـع منهن فقط ، كمـــا يقضى بذلك الشرع الحنيف . مما آلمه وحز فى نفسه ، أنه أنجب من زوجـــاته العشر ابنتين ، ولما أتت احدى نسائه بصبى ، ولدته مشوها ، وقبيل هذا الحادث غير السعيد تزوج رزق زوجته الحادية عشرة ، وهى « خضرة » ابنة شريف مكة ، ومن ثم عرفت بالشريفة ، وأثلج صدره ما رآه من أمارات الحمل عليها ، اذ كان يتوقع أن تأتى له بغلام سرى يجمع الشرف الهاشمى الى الدم الهلالى ، فبعث الى الأمير غانم رأس بنى زغبه يدعوه ورجاله ليشاركوه الحفل بولادة ابنه من بنات الأشراف ، فاستجابوا لدعوته وأصبحوا ضيفانا ينتظرون واياه الحادث السعيد .

واتفق للسيدة خضرة أن تخرج مع الأميرة « شمه » احدى زوجات سرحان فى جمع من العقائل فرأت طائرا أسود ينقض على مجموع من الطير مختلف الألوان والأنواع فيغلب عليه ويقتل الجانب الأكبر منه ، فأعجبت به ورفعت وجهها الى السماء تدعو الله أن يريها غـلاما على شاكلته ولو كان فاحم اللون ، واستجاب الله لها .. وغضب الأمير رزق ولم يكن يصدق أن الغلام ولده ، ولكنه أبقى زوجته

لكلفه بها ، وأبى على نفسه أن يرى الغلام بعينيه ، واكتفى بما سمع من المرأة التى أبلغته النبأ ، وحال بين الجميع وبين رؤيته الى أن جاء اليوم السابع فمد السماط وأحضر الغلام الى الضيوف كما تقضى بذلك العادة المتبعة ، تحمله جارية على محمل من الفضة تغطيه غلالة لا تبين منه شيئا . وألقى السادة عليه « النقوط » من ذهب وفضة ، ورفع أحدهم الغلالة فهاله أن يرى الغلام أسود فاحما . وكان الأمير رزق أثناء هذا كله عند باب خيمته ، فلما دخل أشار عليه معظم أصحابه أن يخلى بينه وبين زوجه هذه ، وشككوه فى خلقها وأعلنوا أن ابقاءه عليها يجر العار عليه وعلى قومه جميعا ، فأذعن كارها وأرسلهـــا وابنهـــا الى أبيها فى مكة .. !

ورأت « خضرة » أن تنزل واديا فى الطريق وألا تعود الى أبيهـــا متهمة فى عرضـــها ، حتى لقيهـا الأمير « فضل بن بيسم » رأس قبيلة الزحلان وعـرف خبرها فاحترمها وأكرم وفادتها وطلب الى زوجه أن تتلقـاها ، وتبنى ولدها ونشـــأه مع أبنيه « منعم ونعيم » . ولكن بركات – وقد أصبح هذا اسـمه – بز أقرانه فى القوة والشجاعة ، حتى اذا بلغ الحادية عشرة من عمره ، كان قد ثقف معـــارف الدين والدنيـــا مما كان يدرس فى جزيرة العرب ، بما فيهـا من علوم اللسان العربى وغير العربى والرياضيات والتنجيم والسحر والكيمياء ، وتحول بركات الى ضرب آخر من المعارف لعله أشد لزوما لفرسان

http://nj180degree.com

ذلك العصر ، فقد استجاب لاشارة معلمه وطلب الى أبيه أن يهدى اليه جوادا ليتدرب به على الفروسية وحمل السلاح ٠

وهذه العقدة اللونية التى ترمز الى موقف العرب من أعدائهم نجدها فى سير شعبية أخرى على رأسها سيرة عنترة بن شداد العبسى ٠ ولكننا نلاحظ فارقا له أهميته بين السيرتين فى هذه الظاهرة هو ٠ أن أبا زيد صريح النسب العربى ، شريفه ، أما عنترة فهو ابن أمة حبشية وان كان الشعب قد جعل هذه الأمة من الأميرات ٠ وقد أكد الشعب النزعة الى وحدة الكلمة تأكيدا واضحا فمهد الى عود الابن الى أبيه ، مستغلا هذه الفرقة ليضم الى الهلالية من دريد وزغبة والجعافرة ، بنى الزحلان ٠ فتروى الملحمة أن بركات عندما أراد أن يطلب الى الأمير فضل الجواد ليتدرب على الفروسية رد عليه بما يريب فى بنوته له ، وان كان يقصد اعزازه ، وكرامه ، فانكفأ الفتى الى أمه يسالها جلية خبره ، فزعمت أن الأمير فضل عمه ، وأن أباه قد قتل على يد هلالى يدعى الأمير رزق نايل ، فاثار ذلك حفيظته وصمم ليأخذن بالثأر وليقتلن هذا الأمير ٠ ولم يكن يدور فى خلده أنه أبوه فى الحقيقة ، ووهبه الأمير فضل خير جياده ، وعلمه الفروسية والطراد والكر والفر وما الى هذا من فنون الحرب ٠ وسرعان ما برز فى الركوب حتى حسده أبناء القبيلة التى يعيش فى كنفها ، وتفوق على الجميع فى لعبة « البرجاس » وأصبح

« بركات » على الأيام الفارس الذى يحمى الديار والثمار والأموال لبنى الزحلان ٠

وتعود بنا السيرة الى الأمير رزق فنراه يعتزل قبيلته بعد ما غادرته زوجته وعاش فى خيمة من الشعر الأسود دلالة على الحزن والأسى واصطحب معه عبدا واحدا يقوم بحوائجه ، واتخذ منزله الى جانب العين التى رأت عندها زوجه « خضرة » تفوق الطائر الأسود على غيره ٠ ولم يمض طويل وقت حتى اجتاح نجوع بنى هلال جدب ماحل استمر أمدا ، فرأى « سرحان » والأشياخ من الهلالية أن يهاجروا الى نجوع بنى الزحلان ٠ بيد أن الجعافرة وبعض الهلالية الآخرين ظلوا مع الأمير رزق ، وكان المطاع بينهم ٠ ولما بلغ سرحان وقومه هدفهم تصدى لهم بركات وألحق بهم هزيمة منكرة ، فأرسل سرحان يستنجد بالأمير رزق فأجابه الى سؤله ، وذكر له اسم بركات فى الطريق وكاد يعرف أنه ولده ٠ وتساءل بينه وبين نفسه اذا صح ما توقعه فلماذا سمى بهذا الاسم وقد سماه عند ولادته أبا زيد ؟ ولما بلغ موضع الهلالية المنحدرين حمل عليه بركات ، وقد أخذته سورة الغضب عند ما عرف اسم منازله وذكر أنه واتره فى أبيه ٠ وسوف رزق المبارزة ما وسعه التسويف ، وكاد الابن أن يقضى على أبيه لولا أن نهته أمه ونفضت اليه بجلية الخبر ، فأقر الأب ابنه واسترد زوجه اعترف بنو هلال جميعا بمكان بركات من أبيه منهم ٠

http://nj180degree.com

ويجدر بنا أن نلاحظ أن الصراع الذى يشتجر بين جيلين ، ثم ينتهى الى اتحادهما ، ليس بقية أسطورية فقدت وظيفتها الأولى وتطورت فحسب ، ولكنه رمز نفسى وفنى الى نزوع عناصر مفرقة من الشعب الى الالتئام . وما رأيناه من افتراق أبى زيد عن أبيه رزق ومحاربة أحدهما الآخر والتقائهما بعد ذلك ، نراه فى أكثر ملاحم الشعوب ... نراه فى الملاحم الفارسية واليونانية والأوروبية وغيرها ، بل نراه فى ملحمة عربية أخرى هى سيرة « الظاهر بيبرس » ، وعلى الرغم من تحول العصبيات الصغيرة الى عصبية قومية واحدة ، فان التنوع فى الصفات والأخلاق ، يظل واضحا فى مختلف الشخوص الذين يجسم كل واحد منهم فريقا من الجمع المتحد . ووظيفة الملحمة هى الاحتفاظ بجميع المزايا التى ينبغى أن تكون فى الشعب ، فالسلطان حسن بن سرحان يمثل الاعتدال الكامل فى السلوك ، والاستعلاء على الصغائر والعطاء قبل الأخذ الى جمال الصورة ، وحسن السمت والهندام ، ويمثل أبو زيد العلم والخبرة والشجاعة الى جانب الخلائق العربية الأصيلة الأخرى مع الذكاء واصطناع الحيلة ، أما دياب بن غانم فيمثل الحماسة العربية بأجلى معانيها ، فهو جسور مقدام تستبد به سورة الغضب الى اعتداد بالذات ورغبة فى الاستئثار بالمال والحرص عليه . وكانت الحادثة العظيمة التى استوعبت السياق كله هى : اتجاه بنى هلال تحت لواء هؤلاء الفرسان الى تونس الغرب .

ولهذا الاتجاه مرحلتان ، تعرف الأول بالريادة ، أى معرفة الطريق واختبار المسالح والحصون وتقدير قوة العدو وهو خليفة الزناتى صاحب تونس ، وقد نهض بها أبو زيد يعاونه الفتيان الأوائل فى القبيلة : يحيى ومرعى ويونس . وكما كان الحافز على التئام الشمل نفسيا وفنيا ، فكذلك كان الحافز على النقلة الجماعية نفسيا وفنيا أيضا ، فقد وقعت سعدى ابنة خليفة الزناتى فى حرب أحد هؤلاء الفتيان الثلاثة ، واحتدم فى داخلها صراع بين الحب من جهة والواجب من جهة أخرى ... بين العاطفة وبين العقل ، وانتهى بها الأمر أن أصبحت عونا لبنى هلال . وعاد أبو زيد ليجلب فدية الأسرى : يحيى ومرعى ويونس . وهنا تحرك الجميع كله بعد أن استدعوا الجازية — أشهر سيدات بنى هلال — التى آثرت ان تترك زوجها وولدها ، وتنضم الى قبيلتها ، وتعمل مع العقائل على شحذ الهمة وجمع الكلمة والاشتراك فى المشورة . ولم يكن الطريق الى تونس ممهدا ، فقد واجهت بنى هلال عقبات كأداء تخلصوا من بعضها بالقتال ، ومن بعضها الآخر بالحيلة ، ونحن نقف عند عقبة واحدة هى : التقاؤهم « بالماضى بن مقرب » فى صعيد مصر ، فقد كان فارسا قويا عنيدا على رأس جمع كبير متفوق ، واشترط الرجل لكى يسمح للهلالية بالمرور والتصعيد الى شمال افريقيا ، أن يتزوج الجازية وأن يأخذ فرس دياب . وأذعن القوم كارهين ، فأما الجازية فقد شغلته عن نفسها بالقصص والحيلة ،

http://nj180degree.com

مثلها فى ذلك مثل شهر زاد ، حتى اذا تنفس الصبح تركته ولحقت بأهلها ، وأما الفرس فقد نفضت « الماضى بن مقرب » عن ظهرها وجدت فى السير الى صاحبها ، وهو الذى أوصى من فرط اعزازه لها أن تدفن معه أو يدفن معها .. ! .

ولم يكن بلوغ الغاية ودخول تونس الخضراء يسيرا، بل كان أعظم ما احتشد له بنو هلال ، فعند أسوارها سقط العديد من فرسانهم لأن خصمهم كان هو الآخر مثلهم شجاعة واقداما وفروسية ، وأتباعه كثيرون ، والمدينة حصينة يقوم النظارة على أبراجها ، والحراس على أبوابها ، وما أبرع السيرة فى اصطناع الحيلة الى جانب الشجاعة توهينا لقوة العدو ، وتفريقا لكلمته ، وتسللا الى الداخل ، ولم ير الوجدان الشعبى بأسا من أن يتنكر أبو زيد فى زى امرأة مع العقائل والنساء من بنات هلال اللاتى تظاهرن بأنهن بائعات جائلات بالعطور والنفائس كغيرهن من البدويات ، وأغلب الظن أن الشعر الذى ورد فى هذا الموقف لم يكن مرسلا ، بل كان حوارا غنائيا بين « الجازية » وبين القائم على حراسة الباب الكبير للمدينة الحصينة . ويتم النصر لبنى هلال وتتشابك الأحداث ، ويسلم جيل الأبطال الى أعقابه جيل الأبناء ، وتكاد الصورة فى هذه الحلقة تطابق ما كان فى سابقتها .

ولما كان الوجدان القومى لا يفرق فى أدبه بين الحياة وبين الفن ، فقد صدرت سيرة بنى هلال عن فلسفة واضحة فى الفكر وفى الشعور وفى التعبير جميعا ، ذلك لأن الشعب لم يشغل باله بالتفريق ـ ولو الى لحظة واحدة ـ بين الشكل وبين المضمون . فالمقطعات المنظومة فى الملحمة تكاد تكون واحدة فى قالبها ، وطرائق التنقل بين أغراضها، وفى وزنها ومطالعها وخواتيمها ، فهى ترسل على ألسنة الفرسان المتبارزين ، والبادىء هو الذى يختار الوزن والقافية ، ويرد عليه الثانى بنفس الوزن وبنفس القافية ، وكان الأمر لا يعدو أن يكون مبارزة بالشعر ، وامتدادا لتقاليد المنافرة والمفاخرة والنقيضة فى الشعر الفصيح . ويستهل الفارس كلامه بذكر اسمه ، لأن السيرة الشعبية لم تكن تمثيلا مشخصا متحركا أمام النظارة ، وانما كانت حديثا مرسلا من منشد محترف يتوسل بآلاته الموسيقية المعروفة بالربابة ، وهى الآلة التى كانت ذات وتر واحد وأصبحت بفعل التطور ذات وترين ، ونغماتها متواصلة متهدجة تساير الصوت البشرى وتماثله . ويسبق اسم الفارس ايراد لفظ الفتى تأكيدا للفتوة العربية المعروفة فى الفروسية ، وتأتى بعده نسبته الى قبيلته توضيحا لموقفه النفسى من منازله . ولم تكن التقاليد المرعية ، سواء فى هذه المقطعات أو فى استهلال السمر وختامه ، تبدأ بحمد الله والثناء عليه ، كما استقرت فى فن الخطابة.

http://nj180degree.com

ولكنها اكتفت بالصلاة على النبى وقرنته دائما بصفته العربية تذكيرا بأن خاتم النبيين انما اصطفى من أمة العرب . فالقصيدة والسمر يستهلان بالصلاة على النبى « العربى » أو « القرشى » أو « التهامى » أو « سيد ولد عدنان » . ويسجل المنشد المحترف فى مطلع سمره أو على لسان فارسه ما يصاحب هذه الصلاة من الخشوع وانهمار الدموع ، مما يبرز الفارق بين حاضر العرب المسلمين ، وبين ما كانوا عليه وما ينبغى أن يكونوا عليه . أما النثر فانتقل من فارس الى فارس ، ومن موقف الى موقف مع التعليق والشرح ، ولا عبرة بما يجده الدارس فى النسخ المطبوعة أو المخطوطة من أمثال هذه العبارات « قال المؤلف » .. قال المصنف لأن المعول على « الراوى » الذى يرتفع على يديه الحاجز بين الانشاء والانشاد ، فالذين ألفوا السيرة نجموا من الشعب العربى واندمجوا فيه ، والذين ينشدونها كذلك .

وتستوعب سيرة بنى هلال ، بل تستوعب سيرة كل بطل من أبطالها كأبى زيد ، القيم الانسانية العليا بأسلوب فطرى تلقائى لم تطمسه تقاليد الانشاد ، فالحق والخير والجمال وحده لا تكاد تنفصل ، والمعرفة والخبرة والسلوك وحده لا تكاد تفترق ، وتحقيق الحياة عمل ايجابى دائب ، وحركة متصلة لهدف كبير لا يتم الا على أساس من كرامة

الفرد والمجموع ، والنهاية معروفة منذ البداية وهى « النصر » فلا صراع بين الفرد وبين القدر ... ليس الهلالية الذين يشخصون العرب أعداء القدر ، وليسوا العوبته ، ولذلك فهم على وفاق معه طالما كانوا محتفظين بمزاياهم على الطريق الى غايتهم ، ومن ثم فهم على موعد أبدا مع النصر ، والتشويق يكمن فى التفاصيل غير المعروفة ، وفى سياق الأحداث الكثيرة المتعددة لمتعاقبة التى يأخذ بعضها برقاب بعض ، والصراع الداخلى بين عناصر الجمع الهلالى يؤخر هذا النصر ، ويعوق بلوغ الغاية الى حين ، وهو درس مباشر يدعو أيضا الى الشرط الأساسى لبلوغ الهدف المعروف . وهذا الشرط هو وحدة الكلمة . وليست النزعة القومية التى تجسمها هذه الوحدة عاطفة غامضة ، ولكنها فلسفة حياة تقوم على أن كرامة الفرد من كرامة المجموع ، وتقوم على أن عزة المجموع هى الحصيلة الكاملة لعزة الأفراد . ويستطيع الدارس أن يلخص فلسفة الحياة الهلالية أو العربية بأنها فلسفة للفروسية التى تنهض على فضائل مقررة تجملها عبارة « المروءة » التى يعدونها حظا مشتركا بين جميع الأفراد بلا استثناء ، يستوى فى ذلك الأبطال وغير الأبطال . والمروءة تستوعب كرم الأصل العربى ، والملاءمة بين شرف الغاية

http://nj180degree.com

وشرف الوسيلة ، الى الحفاظ على الحياة فى أفرادها وفى تجمعها ، والحرص على تواصلها محتفظة بالأساس نفسه مع النجدة والجود ومعاونة الضعيف والمحتاج · واذا كانت الحرب قوام الأحداث ، فانها تنشب تحقيقا للوجود ، واحتفاظا بكرامة الحياة ، واعتصاما بالخير ، وتأكيدا للعروبة فى الوطن الكبير ، وذلك بتزويده بمدد قوى من الفتوة والمروءة العربية ·

ولعل أقوى دليل على اندماج الفن بالحياة فى وجدان الشعب وصدورهما عن مزاج واحد هو ما اصطنعته السيرة من وسيلة صريحة ترفع شبهة كل حاجز بين الانشاء والانشاد ··· بين الابداع وبين التذوق ، فقد صورت الفتيان الأوائل الثلاثة ، يحيى ومرعى ويونس ، وعلى رأسهم فارس القبيلة أبو زيد ، فى القسم المعروف بالريادة ، شعراء جائلين ، يمسك كل منهم ربابته وهذه الصورة هى الذريعة التى تمكنهم من التنقل والتجوال ، وارتياد الربوع على اختلافها من بادية وريف وحضر ، وهى فى الوقت نفسه ادماج للمنشد المحترف المتخصص فى انشاد سيرة بنى هلال ، ترفعه من مجرد قصاص يروى الوقائع والأحداث الى ممثل فرد تتقمصه شخصيات الأبطال ، وترفع الجمهور من ناحية أخرى الى نظارة

يشركون العين مع الأذن فى التذوق والانفعال · وقد أتاحت هذه الوسيلة الفنية فى التصوير اصطناع التمثيل ، وان كان فرديا ساذجا ، كما أنها مكنت لسيرة بنى هلال فى نفوس المنشدين وحببتها اليهم ، وجعلتها عندهم أهم من السير الشعبية الأخرى · ولم يكن التنكر مضعفا بأى حال من الواقعية النفسية التى التزمتها سيرة بنى هلال بنوع خاص ، ذلك لأن الصفة الجديدة وهى صفة الشعراء الجائلين لا تهون من شأن الفرسان لاقتران الشعر بالفروسية فى الوجدان العربى من قديم ، كما أن المنشد المحترف يجب أن يؤكد دائما أنه ليس شخصية غريبة عن المجتمع الذى ينشد فيه ملحمته ··· انه من المجتمع ومكانته – كما يريد أن يخيل لنفسه وللناس – قد ترقى الى مرتبة الأبطال ·

والسيرة الهلالية وان غلب عليها الطابع الملحمى ، تجمع فى قوسها عنصرا غنائيا يشير الى نشأتها حتى بلغت التكامل ، وهذا العنصر يشبه فى بعض حوافزه وصوره ووظائفه المقطعات الشعرية الفصيحة فى الفخر والحماسة والهجاء ، وهو يقوى فى المواقف التى تتطلب التعبير المباشر عن عواطف الشخوص باعتبارهم أفرادا · يضاف اليه عنصر تمثيلى تنطبق به العبارات فى نبراتها الخطابية ،

http://nj180degree.com

وتدل عليه تقاليد المنشد المحترف التى استقرت على الأجيال . ومن هنا وجدنا النبرة المرتفعة تطبع نصوص الشعر ، وتؤثر فى النفس من حيث التقسيم والفواصل والسجع ، فاذا أضفنا الى هذا كله تأثير المنشد المحترف بنبرته ومسايرة صوته للشخوص والمواقف ، أدركنا وجود الملحمية والغناء والتمثيل فى هذا العمل الأدبى الواحد بلا تناقض .. كل فى موضعه ... وكل يصدر عن وحدة المزاج الشعبى . ولا يستطيع الباحث أن يغفل تأثير الموسيقى فى النص نفسه . واذا كان المنشد المحترف يخضع وزن الشعر للالقاء ويضبط ما قد يكون فيه من خلل ، فان مصاحبة الغناء والموسيقى قد عملا عملهما فى استحداث موسيقى داخلية فى تضاعيف النظم . وهى موسيقى تأثرت بقوالب شعرية مستحدثة كالموشح وما اليه ، نجد مصداق ذلك فيما كان من محاورة شعرية بين الجازية وبين الرسول الذى انتدبته القبيلة لاقناعها بالخروج معها فى التغريبة ، وما كان من وار آخر بينها وبين بواب تونس .

واليك هذا المثل بين بدر الهلالى وبواب شكر صاحب مكة وزوج الجازية عندما ذهب ليدعوها الى اللحاق بالجمع الهلالى فى التغريبة . وهذا الشعر لا يتغنى به صاحبه

عاطفة خاصة به فى الواقع ، ولكنه يتخذ من الغنائية العاطفية وسيلة الى قصده :

أنا أول كلامى مدحت التهامى
تظله الغمامى له الحج راح

يا رب أزوره واتملا بنوره
وأشاهد قبوره وتلك النواح

واقو يا حبيبى يا مسكى وطيبى
مدحك من نصيبى مسا مع صباح

لك يوم الهجيرى غمامة تسيرى
وأنت البشيرى بكل الصلاح

من بعد المدايح وقول الملايح
عاد الدمع سايح من جفنى القراح

يا بواب افتح لى الباب المصفح
من دخله يربح وينال الفلاح

ايا بنت عمى زاد فيها غمى
وسقمى وهمى أورث لى نواح

وأبوها قال حين تجيب المال
تحظى بالجمال وسمت الملاح

http://nj180degree.com

قالوا لى اللزايم عليك يابن هاشم
يعطيك الغنايم كتير السماح

وأنا جيت قاصده يجبرنى برفده
ربى يديم سعده ويبقى فى انشراح

وأنا فقير أحتاج مال كثير
وربى قدير يعطيه السماح

ويديم نصره ويعلى لقدره
ويجبر بخاطره بكل الصلاح

لأنه أمير ويرضى الفقير
وخيره كثير أمير البطاح

وأختم كلامى بمدح التهامى
تظله الغمامى بى الفلاح

فأجابه البواب بنفس منهجه الشعرى ، وبالنبرة الغنائية والمضمون العاطفى :

أنا أول كلامى مدحت التهامى
تظله الغمامى هو سيد الملاح

يقول البواب أنا افتح الباب
أدخل لا تهاب يا ابن السماح

أدخل لا تبالى حالك مثل حالى
ياما قد جرى لى فى حب الملاح

وأقول لك صواب أدخل للرحاب
ياما القلب داب وكثرت نواح

كم بيضة كريمة عيشتها غنيمة
والسمرة اللئيمة نورت الافتضاح

راعيها مزقم ساكن فى جهنم
وصيل البيض مغنم مسا مع صباح

أنا كنت بواب فى قصر بعتاب
شاهد الأحباب ملوك النواح

لكن أبعدونى عنهم وحجبونى
فزاد بى جنونى وكثرت نواح

فلا هم يجونى تراهم عيونى
وأنا من شجونى ما لى من راح

أهيم بوجدى ومن نار كبدى
وما حد عندى ولا لى رواح

وأختم كلامى بمدح التهامى
تظله الغمامى له الحج راح

http://nj180degree.com

ويتضح من هذين الشاهدين ، استغلال المحفوظ لقوالب الشعر الجديدة الصالحة للغناء ، كما يتضح منهما ميل المنشد الى الترويح عن نفوس المستمعين في موقف من مواقف الصراع النفسي .. أما هذا الشاهد الثالث ، فهو يصطنع المنهج نفسه وهو حوار تمثيلي غنائي بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، وقد دار بين الجازية ومعها العقائل من بنات هلال ، وقد تنكرن في زي البائعات الجائلات وكان معهن أبو زيد الذي تنكر هو الآخر في زي بائعة جائلة على الرغم من سمرة بشرته وصرامة وجهه ، وبين حارس مدينة تونس :

الجازية : يا بواب صاره افتح للعذارى
حنا يا مشندر الى حد السواره

الحارس : روحي يا ظريفة لما أشاور خليفه
له حربة رهيبة تقصم الحجارة

الجازية : يا بواب منصور افتح لي باب السور
ندخل بدستور ونبيع العطارة

الحارس : المفتاح ما هو بيدي أروح أشاور سيدي
ذا الباب الحديدي في فتحه مشاوره

الجازية : افتح وكن طايح جبنا لك بضايح
وتحت بدايع تصلح للاماره

الحارس : لا أفتح ولا شي ولا عقلي بلا شي
ان كنت عطاشي اشربو من البياره

الجازية : يا بواب افتح ها الباب المصفح
بالزينات تصبح وتنظر للعذاره

الحارس : عندي وعندي ثريا ثم هندي
نجلا أم سعدى تصلحوا لهم جواره

الجازية : افتح لي شويه وشوف الحسن في
تجيك الرؤيه قد يشك حماره

الحارس : روحي يا مليحه أنا أخشى فضيحه
وأنت مستريحه وأنا واقع بناره

الجازية : افتح يا يهودي لزينات الخدودي
حمره كالورودي اذا فتح نواره

الحارس : ليس الشورى ليه لا ليه ولا عليه
أخاف من البليه واصطلي بناره

الجازية : افتح لا تبالي ما معنا رجالي
جينا لك بمالي وحزما للدهاره

http://nj180degree.com

الحارس : وحق الله ربى وعنك ما أنا مخبى
وفتح الباب صعبى ما لى اقتداره

الجازية : افتح يا معتر دا يومك مخضر
ميت بنت تحضر قدامك جهاره

الحارس : سلامه معاكم سامع لغاكم
وهو واقف وراكم مع بنات الأماره

وتمتاز سيرة بنى هلال عن كثير من السير الشعبية والعربية وغير العربية بأنها لا تتحدث كثيرا عن عاطفة الحب بين المرأة والرجل خارج نطاق الزواج . انها تناقض الملحمة الغربية التى شاعت أعقاب القرون الوسطى التى أرت فى الحب مثالية أفلاطونية سلبية وان اتسمت بالمظهر الدينى ، أما الحب عند بنى هلال فهو حب الرجل لزوجته ووفاء الزوجة لبعلها الذى تفارق لسبب من أسباب النقلة والحرب ... انه حب ناضج عاقل لا ينفر اطلاقا من مقاييس الأخلاق . ولم يكن الشعب فى هذه الملحمة بحاجة الى جعل الحب الحافل الأول على بلوغ الغاية كما فعل فى سيرة عنتره ، ولم يجنح الى ما جنح اليه فى سيرة الظاهر بيبرس من تصوير عاطفة تتسامى حتى لتقترب من البنوة والأمومة، بل كان الشعب معتصما بالواقعية فى اكتفائه بهذا الضرب

الانسانى المقرر فى الحياة ، وقد اعترف ابن خلدون بقوة هذه العاطفة من الناحية الأدبية ، فقال : ان حب الجازية لزوجها « شكر » يزرى بحب ليلى للمجنون .

واذا كانت خلايا من هذه السيرة ، قد استقلت برأسها ، ونمت على الأيام مثل قصة «عزيزة ويونس » فان الأصل قد ظل على حاله محتفظا بتسلسل الحلقات ، وتناسب الأحداث ، وسياق الوقائع ، وملامح الشخوص . نعم لقد تطورت سيرة بنى هلال ، واختلفت فى الزى الخارجى وفى اللهجة اختلافها فى زى المنشد ولهجته واصطناعه مساعدا أو أكثر ، بيد أنها ظلت زاد الشعب الفنى ووسيلة الى ترسيب المعرفة والخبرة ، وأغلب الظن أنها ستبقى أمدا بعد أن أحس الشعب العربى وجوده الكامل ، وارتفعت الحواجز النفسية والجغرافية بين أقطاره ، وستتغير وظائفها بعض الشىء ، فتبرأ من الخرافات والخوارق ، وتنتخبها القرائح المعبرة بالكلمة الفصيحة المعربة، وبتشكيل المادة والحركة والاشارة ، وتجعل من بعض حلقاتها روائع تقف الى جانب المسرحيات شبه التاريخية لشكسبير وشلر وأضرابهما .

NYROUF

http://nj180degree.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

NYROUF

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 9883 — 8